(إني ككرة في ميدان فسيح أصبحت فيه اتقلب بصولجان القدر من حال إلى حال شهوراً وأعواماً. في أول عهدي بالسقوط على ظهري على المنوال المعروف في ولادة الأطفال. وإن كنت لم أذنب أي ذنب، فقد وثقت يداي وقدماي في مهد التربية كالمجرم، فكانت قدماي عاطبتين عن المسير. وكفاي عاجزتين عن القبض، وفمي محبوساً عن الأكل، ولساني أبكم عن النطق. ولقد قطرت من كل شعرة من شعرات الهدب دماء الكبد المكلومة إذ لم يدخل الفم حليب صاف كالزلال. ثم ما كدت أبلغ من قوة العقل مبلغاً أميز بها اليمين من الشمال حتى انتقلت من حضن الوالدة الرؤوفة إلى حجر الوالد المشفق ذي الخصال الحميدة، فسلم يدي إلى يد المعلم ليعقل رجلي طبعي بعقال عقله(*). فقد ربى روحي في أرض الكفاية والاستعداد بفضل الأحرف الهجائية التي هي بذور العلم والفضل والكمال. فوجدت الباصرة في نقوش خطوطها طريق النظر إلى العرائس المعطرة الجوانب. وقد أبلغ الناطقة، من وجودهم اللفظي، إلى منتهى البيان في مجاري الأقوال. فقطع بي مرحلة التهجي حرفاً حرفاً، كسالك طريقاً في رجله القيد. فلما تمكن لساني في ذلك الميدان من التخلص من الشكال، تمكنت من الجري للتمتع بالمقصود في غاية الاستعجال، فوصل بي من (باء البسملة) إلى سين (سورة الناس) على هذا المنهاج والمنوال. ثم دخلت مقام كسب العلوم «المدارس» فأخذت أتبع الملمين بفنون العلم، فتعلمت من النحويين قواعد الاعراب، ودرست لدى الصرفيين ضوابط البناء والاعلال، وحزت قسطاً وافراً من علمي الفقة وأصوله، وأدركت المستند لأحكام الحرام والحلال. ولقد اتضح لنا من رواة الحديث والأثريين سنة الرسول ونهج الصحب وسيرة الآل. ثم لما لم تحصل مناي من العلم المطلق، أزمعت أن أقرن العلوم بالأعمال، فانصرفت إلى ذكر الله في العشي والأبكار، ولزمت جانب التفكير بالغدو والآصال، فبلغت بالذكر والفكر حداً انجلى لي به حجاب الكون عن وجه الحقائق، فشاهدت وجود الواحد الأحد «الله»،

(*) يا شرف ! حقا يفعت مناضلا، تربيت تربية حسنة، كنت دائم التفكير بشعبك الذي نال بؤس الحياة، وشظف العيش من المستعمرين، فصرت المورخ الوحيد المخلد لشعبك فصرت جديرا بالثناء، بالوصف الذي فاه به الشاعر الصوفي «سنائى» حين مدح العلامة الكردي الصوفى (بوالوفا) القابع في أرض (واسط) فصار قبره مزاراً للعلماء والأولياء، وكبار الحكام حتى (غازان المغولى) ولقد أجاد سنائى حين قال:

(قرنها بايد كه تا از پشت آدم نطفه ها «بوالوفاي» كوردگردد، يا شود «ويس قرن».

والنور البسيط عياناً، كما تدرك الأضواء والظلال. فتبين لي كثرة الظاهر، من وحدة الباطن، كذروة النار، من الشعلة الجوالة «اليراعة».

يتضح لأرباب الفضل والكمال، وأصحاب العلم والخصال، أن الغرض من تمهيد هذه المقدمات، وتدبيج هذه المقالات هو ترجمة حال الفقير، ذي البال الكسير، وما آلت إليه حاله من حين التولد إلى الحال بإجمال، وهي على ما يأتي من المنوال:

لما أخذ والدي يفارق وطنه المحبوب ومقامه المعروف، ورحل إلى بلاد العجم «إيران» كان قد خطب والدة الفقير المستهام وهي كريمة أمير خان موصلو، وعقد عليها النكاح وبنى بها.

أما أمير خان هذا، فهو نجل گلابي بك بن امير بك المعروف بلقب توقات بايندوري، وهو الذي كان على عهد سلطنة حسن بك البايندوري[٥٦] من الأمراء العظام ومن عمد الحكام. وقد بدت منه - في الحرب التي وقعت بين حسن بك والسلطان أبي سعيد گورگان[٥٧] في قرهباغ[٥٨]، وفي الحروب التي حدثت له مع السلطان محمد خان غازي[٥٩] في صحراء بايبورت ـ بسالات وبطولات كوفىء عليها بمنحه حكومة أرزنجان، وبإسناد محافظة حدودها وثغورها إليه. وله المباني الخيرية الكثيرة في قصبة أرزنجان من مساجد ومدارس[٦٠].

هذا والغرض مما ذكرناه هو أنه لما مضت سبع سنين على ارتحالهم إلى تلك البلاد، مسقط (رأس الفقير الحقير الساقط عن درجة الاعتبار)، من كريمة (أمير خان)

---

(٥٦) يعني به حسن الطويل مؤسس الدولة الآق قويونلية.

(٥٧) هو السلطان أبو سعيد ميرزا بن مير ابن شاه بن تيمور لنك. دخل الحرب ضد حسن الطويل سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٩م) فقتل.

(٥٨) من المناطق الخاضعة الآن لجمهوريات الاتحاد السوفياتي، وكانت فيما سبق ضمن (جورجيا).

(٥٩) هو السلطان محمد خان الثاني المعروف بلقب (الفاتح) سابع السلاطين العثمانيين. تولى السلطنة عام ٨٥٥ هـ (١٤٥١)، وفتح بلاداً كثيرة، ووسع الحدود العثمانية. واستمر في السلطنة حتى سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١م).

(٦٠) جاء في (أخبار الدول) ص (٣٣٧): «أن يوسفجه بك بلغ بعسكر حسن الطويل مدينة توقات في سنة ست وسبعين وثمان مئة (١٤٧٢م) فنهبها وخرب أسوارها... الخ» ولعل المؤلف يعني به (أمير بك) المعروف بلقب توقات بايندري هذا القائد. إلا أن التحريف تطرق إلى الأعلام واختلط بعضها ببعض.

المشار إليها، في قصبة گرهرود من أعمال قم في العراق[٦١] في عشرين من ذي القعدة من سنة تسع وأربعين وتسع مئة (١٥٤٣م) الموافقة لعام (توشقان ييل «عام الأرنب»). وكان مسقط رأس الفقير في منازل (أسرة القضاة) في گرهرود، وهم الذين يرتقي نسبهم العالي إلى القاضي شريح الكوفي[٦٢] الذي عرف بين العلماء، والفضلاء بعلوّ الشأن وسمو المكانة، ومازلوا منذ نزوحهم إليها من بلدة الكوفة حتى عصرنا هذا ينبغ فيهم الرجال الفضلاء والعلماء، فبعثت دعواتهم الخيرية الصالحة أن يقضي الفقير الوقت منذ صباه إلى يومنا هذا - وقد جاوز الخمسين سنة من العمر وأشرف على الستين - في صحبة العلماء، ومجالسة الفضلاء وما انفك لحظة من ملازمة تلك الطبقة العلية.

٢٤

جامی از آلایش تـن پاك شـو در قدم پاك روان، خاك شو
شاید از آن خاك بگردی رسـی گرد شکافی، و بمردی رسی

(يا جامي، تبرأ من العناية بتزيين الجسد، وانقلب تربة تحت أقدام ذوي الأرواح الطيبة، عسى أن تنال من تلك التربة غباراً، غبارَ صلاحٍ، فتحظى منه بلقيا رجل).

وكان من دأب الشاه أن يعنى بأطفال أمرائه وأعيان مملكته فيدخلهم جميعاً قصره العامر وينظمهم في سلك النبلاء «الشاهزادات» المخدومين المعززين المحترمين، فلا يدع من نظم التربية والتنشئة شيئاً إلا ويراعيه رعاية تامة من تعلم القرآن والأحكام الفقهية، ويمرنهم على العبادة والتقوى، ويحثهم على الطهارة، والنظافة ومصاحبة الرجال المتقين، والأناس الأمناء المتدينين، ويحذرهم من الاتصال بالرجال الأشرار ذوي الأخلاق المنحطة والفساق، ويحثهم على ملازمة العلماء، والفضلاء حتى إذا أيفعوا وترعرعوا وبلغوا أشدهم، عهد بهم إلى من يعلمهم النظم العسكرية والرماية واللعب بالكرة والصولجان والفروسية، ويختبر جلادتهم وإقدامهم ورجولتهم وكرمهم، ويوصيهم إضافة إلى ما ذكرناه بقوله: «تعلموا فني التصوير والنقش، فإنهما يفتحان السليقة، ويصقلان الذهن».

(٦١) يعني العراق العجمي - بلاد الجبل.

(٦٢) يعني (القاضي شريح بن هانى) كان قاضياً على عهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن قواده الذين عهد إليهم بمحاربة أهل الشام.

هر كــه از دولـــت اثرى يافتــه　　از دل صاحب نظـــرى يـافتـــه
هر نظرى كز سر صدق و صفاست　　چون بحقيقت نگرى، كيمياسـت
همت پاكان، چـــو درآيـد بكـــار　　برك گـــل تـــازه، برآيد زخـــار

(كل من نال قسطاً من السلطنة، فلا شك أنه ناله بفيض أنفاس رجل ذي بصيرة وهمة. فكل نظرة تبدو من صميم الصدق والصفاء إذا لاحظتها حقاً، فإنها كيمياء. فهمة الأخيار إذا نفذت، اطلعت الأوراد الجميلة من الأشواك).

فعلى هذه القاعدة المذكورة، لما بلغ سن الفقير التاسعة أدخله في حدود عام ثمانية وخمسين وتسع مئة (١٥٥٢م) في حريمه الخاص، فلبث فيه أعواماً ثلاثة منتظماً في سلسلة ذلك السلطان الكريم، ومنخرطاً في سلك مماليكه وخدامه الأجلاء. ولما دخل التأريخ العام الواحد والستين وتسع مئة (١٥٥٥م) واستقال والدى العزيز من ملازمة الشاه مختاراً العزلة في زاوية بيته، قصدت عشيرة روژكي الشاه طهماسب، وطلبت منه أن يسند منصب رئاستهم إلى الفقير، فأجابهم إلى ملتمسهم، ونصب الفقير أميراً وهو في الثانية عشر من عمره، فرفع بذلك رأسه، وأنعم عليه بمنطقتيساليان ومحمود آباد من أعمال شيروان. فلما قام الفقير بإدارة شؤون الإمارة فيهما زهاء ثلاثة أعوام، وصادف أن توفي الشيخ أمير بلباسي مربي الفقير ووكيله في إدارة الملك، وألغيت إمارة ساليان، قصد الفقير الشاه فحظي بزيارته في مرتع خرقان، ففوض أمره إلى خاله محمدي بك حاكم همدان- وكان منه بمنزلة أبيه- فأدخله ذلك الجناب في عداد أبنائه، وأنكحه ابنته الكريمة.

ولقد خصص الشاه طهماسب للفقير مرتباً يرفه به عن نفسه، ورواتب لعشيرة روژكي من ريع أنحاء همدان فلبثوا فيها طوال ثلاثة أعوام، حتى إذا حدثت حادثة السلطان بايزيد(٦٣) ومجيئه لملازمة الشاه ووقوعه في الأسر، وتوافد السفراء من حكومة الروم «الدولة العثمانية» أخذ الشاه يستعطف قلب الوالد رحمه الله ويستميله، فجاء به إلى قزوين وفوّض إليه القيام بشؤون إمارة عشيرة روژكي مرة أخرى، ومنحه منطقة گرهرود من أعمال قم فتولاها بضع سنين، ثم سئم من الثورات

(٦٣) لمعرفة حادثته راجع (ص ٤٨٠).

التي نشبت في الإمارة خلافاً لرغبة الشاه، فتخلى عنها. فلما أدرك الشاه -كانت الجنة مثواه- ذلك، فوض إمارة روژكي إلى الفقير الحقير مرة أخرى، وخصص المرتب لملازميه من جبايات إصفهان. فمكث في قزوين قائماً بشؤون الملازمة مدة سنتين. ثم نفذت مشيئة الأقدار الإلهية بأسر خان أحمد والي گيلان. فأزمع الشاه احتلال ولايته، فأمر الفقير ونفراً من الأمراء القزلباش أن يقوموا بمحافظتها وحراستها. ولما لم يتمكن الأمراء القزلباش من إدارة شؤونها كما يحب الشاه، بل بالغوا في الظلم والاعتساف والتطاول على الشعب بالسلب والنهب إلا الفقير الذي طلب رضاء الخلق والخالق.

rE

صاحب نظران أنيس شاهان باشند مقبول دل جهان پناهان باشند
هم بر جگر ستمگران نيش زنند هم مرهم زخم دادخواهان باشند

(إن أصحاب البصائر هم الذين يؤنسون الملوك ويبتهج بهم قلوب ملاجئ العالم، إذ يغرسون في أفئدة الظلمة الشولات تارة، ويكونون مرهماً لجروح المتظلمين تارة أخرى).

فلقد عامل الشعب بالحسنى و الرعاية الكاملة، وبذل الجهد في استرضاء خاطر الشاه حتى رضى عنه. وكان نواب الشاه كلما أرسلوا إليه بالأوامر أشاروا إلى هذه الناحية بما فحواه: «إن عدالتك الكاملة، وعنايتك بأحوال الشعب، وشجاعتك الفائقة، قد اتضحت، ولاحت لضمائر نوابنا «وزرائنا» المنيرة. بيض الله وجهك في الدارين!».

وخلاصة الكلام أن يمن دعوات ذلك الملك العادل أدى إلى أن يتمكن الفقير بجيش ضئيل قوامه أربع مئة وخمسين نسمة بين فارس وراجل من منازلة السلطان هاشم الذي انتخبه سكان گيلان من بين أولاد سلاطينها لتولية السلطنة، وكان قد نهض لمحاربة الفقير بجيش قوامه ثمانية عشر ألف نسمة بين فرسان ومشاة فلما اندلعت نار الحرب شاء توفيق الرب الجليل أن يندحر ذلك الخاسر الذليل ويصاب جيشه بخسارة في رجاله بلغت زهاء ألف وثمان مئة نفر من رجال گيلان. فشيد من رؤوسهم ثلاث منائر «أعمدة الظفر».

وإذا قطعنا النظر عما حدث هذه المرة، فقد وقع للفقير فيها فتوحات أخرى

وانتصارات لاريب في أنها كانت بنتيجة عناية ربانية. أدت كلها إلى ازدهار أيام هذا الحقير الفقير. غير أن رداءة مناخ گيلان وتفشي الأمراض السارية التي فتكت بكثير من رجال روژكي البسلاء، بعثا على أن ينفر طبع الفقير من الإقامة بها فعزم على الخروج منها. فعرض حقيقة الأمر على الشاه بعد أن قضى فيها على هذه الحالة سبع سنين. فأذن له بمبارحتها فغادرها، وحظي بزيارة الشاه في قزوين. فأراد أولاً أن يتخذه ملازماً لركابه الهمايوني. إلا أنه لما كان وضع القزلباش متأزماً ودخل طوراً جديداً، وكانت العشائر والقبائل القزلباشية قد تحزبت حزبين، وعجز الشاه طهماسب عن ضبط الأمور، لما بلغه من الشيخوخة وفتور العزيمة والقوة حتى كان يتوقع اشتباكهما في كل لحظة، ويخاف من اندلاع نار الثورة والفوضى بين الفريقين، رأى الفقير أن ليس من الصالح البقاء بها، فالتمس من الشاه أن يوجهه إلى إحدى جهات ممالكه المحروسة. فأقطعه الشاه بعض ربوع شيروان، وقرر أن تكون مرتبات عشيرة روژكي من الموارد المجباة من الخواص الهمايونية من مناطق تراكمات وأرش وآق داش وقباله وباكو وكنار آب. وهكذا سير الفقير إلى شيروان.

فلما قضى فيها ثمانية أشهر، ونعى إليه الشاه -رحمه الله- وحدوث كوارث فجيعة في قزوين، وبلغه نبأ مقتل السلطان حيدر ميرزا[٦٤] وتخلص إسماعيل ميرزا[٦٥] من القلعة التي كان سجيناً بها، ورجوعه إلى دار الملك قزوين في هذه الآونة، وصل إليه الأمر المطاع بمغادرة شيروان واللحاق بخدمة السلطان. فجاءه فرفع رأسه بتوليته منصب إمارة أمراء الأكراد وقرر أن يكون ملازماً دائماً لركابه الهمايوني الميمون. حتى إذا مست حاجة أمراء كردستان[٦٦] ولرستان و گوران[٦٧] وحكامها وأمراء بقية العشائر الكردية، وصارت لهم مهمة في المقام الملكي أن يراجعوه، فتتم مهماتهم وحوائجهم على يده.

---

(٦٤) هو السلطان حيدر ميرزا بن الشاه طهماسب خانت أمه (الشاه طهماسب) فسممته لتوليه إلا أنه ما كاد يتولى الحكم حتى دست أخته (بيري خانم) رجالاً في خزانته ليقتلوه، فقتلته وأخرجت إسماعيل فولته مكانه.

(٦٥) راجع (ص) لمعرفة ترجمة حياته.

(٦٦) يعني بـ(كردستان) هنا مدلولها الخاص، أي مناطق سنندج = سنه.

(٦٧) لعله يعني بمنطقة گوران مناطق كرمنشاه وخانقين وكركوك.

كان الشاه الجديد يوجه إلى الفقير من الإعزاز والاحترام ما جعله محسوداً من الأقران بل ومن أعيان القزلباش أيضاً. وأخيراً اهتبل الحاسدون الفرصة، فأخذوا يعرضون عليه خفية ما فحواه: «إنه -يعني الفقير- تآمر مع بعض الأمراء القزلباش على خلع الشاه ونصب ابن أخيه السلطان حسين ميرزا مكانه!».

ولما كان الشاه في أصل فطرته متوتر الأعصاب سريع الغضب، وقد ازدادت فيه تلك العارضة أخيراً من جراء تدخين الأفيون- الذي كثر من تناوله أيام سجنه في القلعة- بحيث جعله يحب التخلي ولا يستطيع معاشرة أحد أكثر من شهر، وقعت وشايات الواشين وأكذوبات المختلفين موقعاً حسناً منه، فثارت حفيظته على المتهمين بالتآمر عليه، فصلب بعضهم ممثلاً بهم أشنع التمثيل، وعزل بعضهم زاجاً بهم في غياهب السجون، ووعد الفقير بمنح حكومة نخچوان وعلى هذه الوتيرة أخرج الفقير من العاصمة ووجهه إلى أنحاء آذربيجان. كانت هذه الحادثة في حد ذاتها بشارة أو رمزاً وإشارة من المنحة الإلهية وفضلاً من الفيوضات الربانية اللامتناهية وسماحاً للعودة إلى أرض الوطن المألوف ومقام الأجداد المعروف. إذ لم تمض سنة وأربعة أشهر على تقلد الفقير زمام أمور حكومتها وإدارة شؤونها، حتى جاءته من مقام الملك الفريدوني المكانة، الكسروي المعدلة، الجمشيدي القدرة، الإسكندري العظمة، أعني السلطان مراد خان[٦٨] عليه الرحمة والغفران، بواسطة خسرو باشا أمير أمراء وان وزينل بك حاكم حكاري وحسن بك محمودي بشارة بمنحه عهداً بإيالة بدليس، جاء فيه: «لقد أنعم عليكم من الأعطاف الخسروية الشاملة والألطاف الملوكية اللانهاية بمنحكم الكورة الوارثية لتطمين بالكم واستمالة خاطركم. فتوقعوها وارجعوا إلى الوطن الأصلي مطبقين مضمون «كل شيء يرجع إلى أصله». فلما حل اليوم الثالث من سنة ست وثمانين وتسع مئة (١٥٧٥م) نهض الفقير من نخچوان مع أربع مئة نفر ممن كانوا يلازمونه من جملتهم مئتا نفر من عشيرة روژكي. فتمكن في بحر ثلاثة أيام بمعونة من جيش وان وأمراء كردستان من بلوغ وان لملاقاة خسرو باشا رحمه الله، فاستقبل الفقير وتلقاه بحفاوة بالغة وأدخله المدينة. وعرض جلية الأمر على أعتاب سرير السلطان العالية. فأصدر الأمر بتزويده بعهد الإيالة من

(٦٨) هو السلطان مراد خان الثالث.

جديد، وبمنحه خلعاً ملكية وسيفاً مذهباً كان قد انتقل من خزانه السلطان قدوان الشركسي(٦٩) والي مصر إلى الخزينة السلطانية العامرة فأرسل بها جميعاً مع مصطفى چاوش إضافة إلى رسائل الوزراء العظام ولا سيما الوزير الأعظم محمد باشا. وجاءته كذلك هدايا وخلع أخرى فاخرة مع سيف مذهب من مصطفى باشا رئيس الجيش المنصور. وهكذا رفعوا رأس الفقير بما شملوه به من الأعطاف والحنان. وبهذه الصورة تيسرت له العودة المقرونة بالابتهاج وقضاء المرام إلى مقر دولة الآباء والأجداد العظام.

rE

شكر خدا، كه هرچه طلب كردم از خدا   بر منتهاى همت فوق خود كامران شدم

(الشكرلله، كل ما طلبته منه فزت به فوق ما كنت أتمناه).

هذا ومن حين بدأ السلطان الجمشيدي المكانة بتسيير الجيوش التي تحكي عدد النجوم إلى احتلال شيروان وغرجستان = جورجيا وآذربيجان، وقد بلغ عشر سنين، لم يزل الفقير في هذه المعارك والأسفار مصطحباً للجيش كأنه الظفر القرين به، ولم يأل جهداً في القيام بالخدمات المفوضة إليه، ولم يترك دقيقاً من الخدمة والتضحية إلا أداه بحيث أنه شاهد أربع مرات: أن السلطان -كان الفردوس مأواه والجنة مثواه- قد خاطبه في الرسائل التي كتبها إليه بخطه الهمايوني المقرون بالسعادة، المدبج ببراعته السيالة جواهر ودراً، بكلمة: «محبي الصادق شرف خان، إن إخلاصك الكامل وولاءك التام ومودتك الخالصة وخدماتك الصالحة، قد لاحت على ضميرنا الهمايوني المنير المشع كالشمس. فعليكم أن تجتهدوا لتزييد ثقتنا الملكية، وعنايتنا الخسروية بشأنكم، حتى المرتبة العليا والدرجة القصوى».

ولما احتل فرهاد باشا السردار في حدود سنة إحدى وتسعين وتسع مئة (١٥٨٢م) ايروان = أريڤان وشيد بها حصناً منيعاً، انتخب الفقير لإيصال الخزينة

---

(٦٩) ليس بين ملوك الشراكسة الذين تولوا السلطنة من اسمه (قدوان) أو ما يشابه هذه اللفظة. ولعل هذا الاسم غلط محض فقد استولت الدولة العثمانية على السلطنة المصرية على عهد (طومان باي) السلطان الثالث والعشرين. هذا ويحتمل أن يكون هذا الاسم محرفاً من قلاوون تاسع ملوك المماليك البحرية. وأن يكون هذا السيف بقي منذ عهده في الخزانة المصرية، ثم انتقل إليها.

والذخائر المرسلة بصحبة حسن باشا أمير أمراء الشام إلى تفليس وغرجستان = جورجيا. فصدرت من الفقير في تلك السفرة خدمات جليلة كوفىء لقاءها بمنحه موش، وزعامة مئتي ألف آقچه، وترقيته، باضافة قرى من الخواص الهمايونية إلى إيالة بدليس، فبلغ بذلك مجموع حاصلات الخواص السنوية المتمتع بها الفقير أربع مئة ألف وعشرة آلاف آقچه عثمانية، مع أنه لم يعهد في أيام السلاطين العثمانية ولا في أيام خواقينهم القدماء العظماء أن فاز أحد من الحكام والأمراء العظام بمثل هذه الأعطاف والانعامات.

واليوم وقد بلغ التأريخ الهجري سلخ ذي الحجة من سنة خمس وألف (١٥٩٦م) فمن يمن دولة الخاقان العلي الشأن أبي المظفر السلطان محمد خان[٧٠] حفظه الله تعالى عن الآفات أن تخضع الحكومة الوراثية لتصرف الفقير. إلا أنه ابتعد بنفسه من تولي أمرها، وعهد بشؤونها إلى ولده أبي المعالي شمس الدين بك أطال الله عمره وضاعف جلال قدره[٧١]، هذا وعلى ما يضمره الأب من الشفقة لولده، نقوم - كما هو شأن المؤلفين في إسداء النصح إلى أولادهم- باقتطاف أبيات نصحية، من كتاب (خردنامه = كتاب العقل) لمؤلفه مولانا عبدالرحمن الجامي نثبتها هنا:

---

(٧٠) راجع ترجمة حياته في (ص ٣٣).

(٧١) هنا ينتهي عهد (المؤلف) بهذه الإمارة. ولم يضف السيد محمد أمين زكي بك إلى هذه الأبحاث من المعلومات، إلا أنه قال: «في عام ١٠٦٦هـ (١٦٧٦م) تذرع ملك أحمد باشا والي وان من قبل الدولة العثمانية ببعض الأسباب، وزحف على عبدال خان أمير بدليس حينذاك بجيش لجب، ألف معظمه من جيوش الأكراد المجاورين لهذه الولاية، وظل يقاتله، حتى اضطره إلى الفرار، وأعمل يد النهب والسلب في البلاد حتى قضى على الإمارة، ووضع يده على خزائنها الطائلة التي طالما كان الترك طامعين فيها ! وكان أولياء جلبي حاضراً في اللجنة التي تولت ضبط مخلفاته، فيحدثنا عن تلك المخلفات قائلاً: «كان مما خلفه، حمل سبع جمال من الكتب؛ فكانت مكتبته الخاصة تحتوي على أكثر من أربعة آلاف نسخة من الكتب القيمة. من نوادر المخطوطات في العلوم الدينية والتأريخية واللغوية وعلم الحيوان والنبات والطب والتشريح والشعر والقافية والدواوين، وأنواع من الخرائط والصور واللوحات النادرة، وأغلبها مجلد في غاية من الإتقان والزخرفة. وكان يبلغ عدد تأليفاته (٧٦) كتاباً، و (١٠٥) رسائل كتبها بالفارسية والعربية». هذا، ولعل هذا الأمير هو الذي زاره السائح الإفرنسي مسيو بارن تاوارنيه - الذي كان يتردد بين إصفهان وباريس خلال أعوام ١٠٤٥-١٠٧٠هـ (١٦٣٥-١٦٦٠م)، وينقل

البضائع الشرقية إلى الغرب والغربية إلى الشرق على عهد كل من الشاه صفي والشاه عباس الثاني والشاه سليمان – حين يصفه بقوله: «حين نزلنا مدينة بدليس، سرعان ما استخبر حاكمها فبعث فوراً من أخذني إليه. ولما كنت أعلم أن مواجهة الحكام والأمراء في تلك البلاد ليست أمراً هيناً، بادرت بالذهاب إليه حاملاً معي طولين من نسيج الأطلس المخطط الفاخر، كان أحدهما محبوكاً بالقصب الذهبي، والآخر بالقصب الفضي مع عدد من الكفافي الحريرية وطاقيتين مما يلبسه الترك عادة مع البذلة الليلية. فسر الأمير لهذه الهدايا، وكافأني بمنحي نعجتين سمينتين، وشيئاً من المأكولات بضمنها عنقود من العنب الطري- وكان يعد وجوده في ذلك الموسم أعجوبة- إضافة إلى بعض المشروبات.

ولما كنت في مجلسه، جاءه سفير من أمير حلب بكتاب يطلبه فيه: «رد رجل كان التجأ إليه، وكان ذلك الرجل جراحاً فرنسياً وقع في الأسر في محاربة قندية-Candia وانهزم من حلب إلى بدليس فدخل ضمن رجال الأمير – فخاطب الأمير السفير قائلاً: «لو لم يكن قتل السفراء محظوراً، لقتلتك أشنع قتلة ولكن !». ثم كتب إلى أمير حلب: سأرفعك إلى السلطان العثماني، على ما ارتكبت من المخالفة وقلة الأدب فإن عاقبك فبها ونعمت، وإلا فأعاهد الله على أن أنتقم منه نفسه».

والحق أن هذا الأمير كان قديراً شديد البأس تهابه الدولتان الإيرانية والعثمانية، فتقدمان له الهدايا، وتسترضيانه، إذ كان يستطيع أن يقطع طريق المرور بين تبريز وحلب كما أن الحكومة العثمانية لاتتمكن من إدارة (وان) إلا بعد المرور من بدليس بإجازة من الأمير، إذ ليس في الدنيا كلها مضيق يضاهي مضيق بدليس الخاضعة له، فإن عشرة رجال يستطيعون تعويق ألف نفر من اقتحامه. وليس غيره من سبيل يسلك.

أما مدينة بدليس نفسها فمحاطة بجبلين منيعين والقلعة واقعة وسطها. وهي مشيدة فوق قمة جبل مخروطي الشكل لا يرتقى إليها إلا من طريق واحد. وتتألف من ثلاثة أسوار، اثنان منها واسعان، وواحد ضيق بداخله قصر الأمير. ويحتاج المرء للصعود إليها أن يمتطي صهوة جواد قوي ولكن الصعود إليها محظور على فارس غير الأمير وأمير اصطبله. وإضافة إلى هذه القلعة المنيعة، فإن الأمير يستطيع أن يعبىء جيشاً يتراوح عدده من ٢٠ إلى ٢٥ ألف فارس، وعدداً كبيراً من المشاة!».

ويظهر مماجاء في كتاب القضية الكردية (ص٤٩): «أن أبناء هذه الولاية ما زالوا يكافحون ويناضلون في سبيل استقلالها حتى سنة ١٣٣١هـ (١٩١٣م)، وآخر ثورة قاموا بها في سبيل استقلالهم هي التي قادها كل من الملا سليم وشهاب وعلي. إلا أنها أخمدت بشدة، والتجأ الملا سليم إلى القنصلية الروسية، وبقي بها حتى نشوب الحرب بين الدولتين الروسية والتركية. عندئذ اقتحم جنود الترك القنصلية، وأخرجوا الملا سليم وشنقوه في شوارع بدليس».

بیا ! أی جگر گوشه، فرزنـــــد مـــن   بنــــه گوش بر گـــوهر پـــند مـن
صدف وار بنشین، دمي لب خمــوش   چو گوهــر فشانم بمن دار گـــوش
شــــــــنو پند و دانش بآن یارکن   چـو دانستی، آنگـــه، بدان کارکن
بـــزرگان کـــه تعلیـم دین کرده‌اند   بخردان، نصیحـت چنـین کرده‌انـد
که اي همچو خورشید روشن ضمیـر   چو صبح از صفا ، شیوهء صدق گیـر
بهـــر کـار، دل، باخـدا راسـت دار   که از راستکاری، شـــوي رستـگار
اگر وا گذاری، بدو کـــار خـــویش   نیایـد ترا هیـــــچ دشـــوار پیـش
ز کار تو دشمن هـــراسان شـــود   همـــه کارها بر تـــو آســـان شـود
وگر جز بـدو افگنـــــی کـــاررا   نشـانه شـــوی، تیـــر ادبـــاررا
چو غالب شود ، خوی بد در مـزاج   نباشد بجـز خـوی نیکـــش عــلاج
بزن شیشهء خشمرا سنـــگ حلـــم   بشو ظلمـــت جهـــل از آب علـــم
مزن پشـت پـــا بخـت فیـــروزرا   بقسمت سیه کن هـر شبـــان روزرا
یـــکی را بتحصیل دانـــش گـــذار   که بیدانشی نیست جز عیب و عــار
بدانش شـــو ، انـدر دوم، کـــارگر   سیـم را ، پـــي دانشــان، بـر بســر
بخوان دفتـر کهنه گـــان و نـــوان   بهـــر کشوري بین، که چون خسروان
بمیـــدان شـــاهی فـــرس تاختـــند   در آن عـــرصـــه نـرد هـــوس باختند
مکن هم نشینی بهر بـــد سرشـــت   کـــه دزدد ازو طبـــع تو خوی زشت
شوی أز بـدی پـــر زنیـــکی تهـــی   وزو نبـــودت ذره‌ء آگـــــهــــی!
چه خوش گفت دهقان صافي زرنگ   کـــه انگـــور گیرد ، ز انگور رنـگ
بهـــر کـــس ره آشنایی مپـــوی   ز هـــر آشـــنا ، روشنایی مجـوی
جفاي که برتـــو، ز عـــالم رســـد   جـــز از جـــانب آشنـا کـــم رسـد
هـــر آن جور، کز دور این آسیاست   همـه ز آشنا رفتـه بر آشنـاســـت
بـــود داوریـــها ، دو هـــم خانه‌را   کـــه هرگز نباشـــد دو بیگـانه را
چو روز سیاست، دهی بـار عـــام   میفگـــن نظر، بـــر حریفان خـام
مبادا ، کزان لهـــو گســـتاخ کـن   رود بـــا تـــو گستاخـــی در سخن
چو بر رشتهء کـــارت افتـــــد گره   شکیبـــــائي از جهـــد بیهـوده بـه

همـــه كـــارها از فـــرو بســـتگى گشـــــايد، وليكـــن بآهســـتگى
مكن تربيـــت بـــد گهـــر زاده را ببدمست هنـــدو مـــده بـــــاده را
بد از نخـــوت جـــاه بدتر شـــود چـــو گردد قـــوي مـــار اژدر شود
ميفگـــن بكـــــار رعيـــت گره خدا آنچه دادت، بـــايشان بـــــده
سخن تا تـــواني بـــآزرم گـــوى كه تا مستمع گـــردد، آزرم خـوي
سخن گفـــتن نـرم، فرازانگي است درشتي نمودن ز ديوانـگي اســــت
تواضع كن، آنرا كـه دانشـوراست زدانش، زتـــو قـــدر او بر تراست
همي بـاش روشـن دل وصـاف راى بـــانصاف، با بنــــده گان خـداى
زبان سوده شد، زين سخن خامــه را ورق شـــد سيـــه زين رقم نـــامه را
چه خوش گفت دانا، كه در خانه كس چو باشد ز گوينده، يك حـرف بـــس
همان به كه در كـــوي دل، ره كنيـــم زبان را، بدين حـرف، كـــوته كنيـــم

(تعـال يا ولدي ويا فلذة كبدي! أعـر سمعك درر نصائحي. تشبه بالصدف في الجلوس وأغلق شفتي الفم صامتاً وكن حين أبث الجواهر، مستمعاً إليَّ. اسمع النصح والعلم، وعاشر أهلها حتى إذا تعلمتهما عملت بهما. إن العظام حيثما عنوا بتعليم الدين، نصحوا الصغـار كما يلي: يا من يحكي في وضح الضمير الشمس، وفي كسب الصدق الصبح الصافي. أصدق الله في جميع أمورك، فبالصدق تلقى الفلاح والنجاح. فلو وكلت إليـه أمورك لم تعقك مشكلة مـا. بل تقلق من أمورك الأعداء ويهـون الأمر عليك. وإن وكلت إلى غيـره أمورك أصبحت عرضة لسهـام النكبات. وإذا غلبت الطبائع السيئة المزاج، فلا علاج لها إلا بالتخلق بالجميل، فاكسر زجاجة الغضب بصخرة الحلم، واغسل ظلمة الجهل بنور العلم. ولا تطأ بقدميك المجد العالي، وقسم يومك ثلاثة أقسـام: اصرف قسماً في تحصيل العلم والعرفان، فما عدم العلم إلا الخزي والعار، واصرف القسم الثاني في العمل المقرون بالعلم، والقسم الثـالث في الاحتـفـاء بأهل العلم والعـرفـان، واقـرأ آثار السلف والخلف، ولاحظ الأقاليم كيف نهض ملوكها. بإيجاف خيول الحكم في ميادين السلطنة، وتقديم زهر النرد في ساحات السباق. لا تجالس ذا الأخلاق السيئة، فإن طبيعتك تسرق منه السوء، فتمتلىء بالشر، وتخلو من الخير، وتغفل منه بكل معنى الكلمة. ما أحسن ماقاله الدهقان البسيط النبيـه: «العنب يكتسب اللون من العنب بالتلقيح!» فلا

تفتح سبيل الصداقة مع كل أحد، ولا تتوقع من كل صديق خيراً، فكل جفاء يأتيك من غيرك، فقلما يكون من غير الأصدقاء. وكل عسف يصدر من هذه الطاحونة الدائرة «الفلك» إنما يوجه من الصديق إلى الصديق. فالخيانة التي تقع بين جيرانين، لا تقع بين أجنبيين في اليوم الذي تتمثل بالناس، لاتعتمد على الرعاع الحمقى، مخافة أن يصيبك من أولئك الحمقى أذى، وإذا تعرقل أمر من أمورك، فاصبر فإن الصبر أحسن، من بذل الجهود عبثاً، وما من مشكلة إلا تحل، ولكن شيئاً فشيئاً، لا تعتن بتربية من ليس كريم الحسب، ولا تعط السكير الهندي قدحاً، فالشرير، يزداد بنخوة الجاه شراً إلى شره. كالحية إذا غلظت أصبحت أفعى، لا تجعلن أمور الرعية عسيرة، وجد عليهم بما جاد الله عليك، واخفض صوتك في الكلام ما استطعت، ليصبح المستمع إليك هادئاً وادعاً، فالكلام الوادع من العقل، أما الغلظة فمن الحمق، والجنون. تواضع لمن تحسبه عاقلاً، فإنه بعقله يزيدك رفعة، وكن صافي الضمير نافذ الرأي. وكن منصفاً مع عباد الله، لقد اسود سنان القلم من تحرير هذه الكلمات، واسود الورق من تحرير هذه الرسالة. ما أجمل ما قاله الحكيم. «لو كان في الدار أحد، كفاه نداء واحد...» والأحسن أن نسلك الطريق إلى مدينة القلب، وليقف اللسان عند هذا الحرف).

هذا ولما تمكنا بفضل التوفيق الإلهي للقلم الجاري بلآلىء التحقيق أن ندبج من الآثار الغريبة المتعلقة بأمراء كردستان وحكامها، ما تيسر إلى حد هذا اليوم، فالأولى والأنسب بنا حسب الإشارة التي وردت في مقدمة الكتاب ان نعني بما وعدنا فنطلق عنان القلم الواسطي(*) الحاد الجاري بإبرام المعاني وزمام البيان

(*) نسبة إلى العلماء والشعراء الواسطيين: ألف عنهم «بحشل» كتاب تأريخ واسط ولكنه لم يسجل اسم كردي ولعل الامير شرفخان يعني بالواسطي أبا الربيع حامداً من متولدي القرن الثالث الهجري المنجم المعروف، من صانعي الأسطرلاب فإن جملة البراعة الواسطية الحادة، دليل عمله في صنع الأسطرلاب على صفحات النحاس بالأقلام الحادة فبارك الله في عبدالرقيب يوسف الذي ألهمتني لكتابة هذا التعليق، وهناك أبو عبدالله محمد بن زيدين علي من كبار علماء المعتزلة من تلامذة أبي علي الجبائي، من مؤلفاته إعجاز القرآن و الإمامة وهو من المتوفَّين في ٣٠٧هـ.ق.
هذا وللعلم أن بلدة واسط بناها وأسسها «الحجاج بن يوسف الثقفي» المعروف بالحجاج الظالم في منطقة البطائح التي تأسست فيها الدولة الكردية الشاهينية.

الفصيح، للخوض في كتابة الوقائع والحوادث المتعلقة، بأيام السلاطين العثمانية، وملوك إيران وطوران.

rE

منت ايزدرا كه بر وفق مراد   كرد كلكم از سر دانـــش ســواد
قصهء حكام كردستان تمـام   بيش ازين گفتن نيارم والسلام

المنة لله، لقد تم جريان يراعي المقرون بالعلم على وفق المأمول بتسـويد قصص حكام كردستان بكاملها، وليس لي من مقال أكثر من هذا، والسلام مسك الختام.

كان الانتهاء من تعريب هذا الكتاب في ٨ المحرم الحرام سنة ١٣٦٣هـ ١٠ كانون الثاني ١٩٤٤م). أما التعاليق، فقد كتبت في سنة ١٣٦٩هـ (١٩٥٠م) والحمد لله في البدء والختام.